البحرين

وتجارة الدولة العباسية

بقلم : أ.د. عطية القوصي

نشطت التجارة والملاحة في الخليج العربي منذ وقت موغل في القدم، وكان لعرب الخليج عامة، وعرب البحرين خاصة، نشاطهم التجاري والملاحي قبل ظهور الاسلام بقرون عديدة. فقد قام عرب البحرين، قبل الاسلام، بالابحار الى بلاد الهند والاتجار معها، وقد عرفوا سر الرياح الموسمية المسيِّرة لسفن المحيط الهندي[1]. وكانت سفنهم تنقل البضائع الغالية الثمن والخفيفة الحمل من الهند الى موانىء الخليج والجزيرة العربية، ومنها الى مكة على وجه الخصوص، عاصمة بلاد العرب التجارية والدينية وأهم أسواقها[2]. وكانت مكة تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب بحكم موقعها في ملتقى طريقين تجاريين عالميين قديمين، وهما طريق اليمن والشام، وطريق اليمن والعراق وفارس، وبحكم إنها نقطة بداية سير القوافل التجارية الى مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

ولقد كان الخليج العربي والبحر الأحمر، منذ القدم، طريقي التجارة العالمية البحرية بين الشرق والغرب، وتناوب كل منهما السيادة على هذه التجارة. واذا كان فراعنة مصر، ومن بعدهم حكام البطالمة في مصر قد عملوا على ازدهار تجارة البحر الأحمر دون الخليج، فان الرومان، الذين ورثوا عن حكام البطالمة سياسةالاهتمام بتجارة الشرق الغنية، قد واصلوا سياستهم في ازدهار تجارة هذا البحر، وفي ذات الوقت اهتموا بالتجارة عبر الخليج وعملوا على ازدهار مركزها في البحرين وفي ميناء الأُبلة.

وفي القرن الثالث الميلادي، صار الخليج العربي صاحب السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة على تجارة المرور بين الشرق والغرب العالمية، بسبب جهود الدولة الساسانية الفارسية، التى كانت لها السيطرة السياسية على معظم قارة آسيا آنذاك، في العمل على ازدهار تجارة الخليج بعد أن صارت تقوم بدور الوسيط التجاري بين بلاد الهند والصين وجنوب شرق آسيا وبلاد الغرب. وصارت بلاد البحرين المحطة الرئيسية لوصول تجارة الهند والصين ولرسو سفنهم فيها، ونقل التجارة منها الى سائر موانىء الخليج، التى كانت تنتقل بالتالى منها الى الجزيرة العربية والعالم الخارجي.

ولقد نبغ أهل البحرين في الملاحة ونقل التجارة والعمل فيها منذ القدم، وذلك بحكم موقعها المتميز في الخليج وكونها المحطة الأولى فيه للسفن التى تمخر عبابه قادمة من الهند والصين أو مقلعة اليهما.

وقد ذكر أهل الأخبار أن سكان البحرين قد نبغوا في هذا المجال منذ عهد الأقوام البائدة الذين سكنوا البحرين(٣)، ومن سكنها، بعدذلك، من العرب العدنانية المستعربة من بنى عبدالقيس ووائل(٤).

ولقد خضعت بلاد البحرين لحكم دولة الفرس الساسانيين، الذين دخلوا في صراع من أجل فرض السيادة على التجارة العالمية بين الشرق والغرب مع الروم والبيزنطيين. ومنحت الدولة الساسانية عرب البحرين حرية حماية شطآن بلادهم، وشجعت جهودهم في العمل على استمرار وصول سفن الهند والصين التجارية الى بلادهم، كذلك لم تتدخل في شئونهم الداخلية وسمحت لهم بتكوين الثروات من عائد التجارة والملاحة العالمية ومن العمل على تطهير مياههم من خطر قراصنة البيزنطيين والأحباش. وكانت بيزنطة، آنذاك، قد قامت بمقاومة احتكار الفرس لتجارة الهند عبر الخليج، واعتمدت في خرق هذا الاتفاق على حليفتها الحبشة، لكن محاولتها بصدد ذلك باءت بالفشل(٥).

وظلت الحرب سجالاً، ولمدة طويلة، بين حلف بيزنطة والحبشة من جهة وحلف فارس وعرب الخليج من جهة أخرى للسيطرة على تجارة الهند والصين، وحاول كل منهما أن يجعل كفة هذه التجارة تميل لصالحه، واستمر الحال على ذلك، دون حسم، حتى ظهور الاسلام وقيام دولته، ولما كانت هذه الدولة الاسلامية الوليدة قد

نجحت، في حركة فتوحها، في ضم كل دولة فارس إليها وضم كثير من مستعمرات الروم، فقد ضمت اليها بالتالي البحر الأحمر والخليج العربي وصارت لها السيادة عليهما بمفردها وبالتالى صار لها التحكم المطلق في طريق التجارة العالمي بين الشرق والغرب. ولقد شجعت الدولة الاسلامية التجارة العالمية واعتبرتها مصدراً هاماً من مصادر دخلها. وعملت قدر جهدها، على الارتقاء بها والمحافظة عليها وتأمين طريقها، وتقديم التسهيلات للسفن وللتجار في كل موانيها. فازدهرت التجارة الاسلامية في الخليج والبحر الأحمر، واستقبلت موانيهما ومراكزهما التجارية البحرية بضائع الصين والهند وحاصلات تجارة الشرق الغالية الثمن والمرتفعة القيمة من توابل وعطور وبخور وجلود وحرير وأحجار كريمة ومشغولات ذهبية وفضية وعقاقير طبية ومنسوجات فاخرة.

ومخرت آنذاك، سفن المسلمين عباب مياه المحيط الهندي الذي دانت شطآنه لسيطرتهم بعد أن فتحوا أقليم السند، في شمال الهند، مع مطلع القرن الثاني الهجري، وكانت بلاد البحرين أهم مراكز أسطولهم التجارى والحربي للوصول الى مياه هذا المحيط.

ولقد عرفت الدولة الاسلامية، منذ قيامها، أهمية بلاد البحرين الاستراتيجية والاقتصادية، ولذلك حرصت منذ بدء الدعوة الاسلامية، على ضمها اليها ونشر الاسلام بين أهلها، والاستفادة من مهارة أهلها وشجاعتهم في الفتوح والحملات البحرية، على وجه الخصوص، لتوصيل رسالة الاسلام الى أقصى نطاق القارة الآسيوية.

وقد بعث رسول الله ﷺ، قبل فتح مكة سنة ٨ هـ، برسول وكتاب من عنده الى حكام البحرين ضمن من راسلهم رسول الله عليه السلام يدعوهم الى الاسلام[٦]. فبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى العبدى، أخى بنى عبدالقيس وملك البحرين[٧]، والى سيبخت الفارسي مهرزبان هجر يدعوهما الى الاسلام أو دفع الجزية. فأسلم المنذر وحسن اسلامه[٨]. وذكرت المصادر أن بنى عبدالقيس ابن افصى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار كانوا آنذاك على النصرانية وان غيرهم كان من المجوسية (الزرادشتية)، فقدم بشر بن عمرو سنة تسع للهجرة على رأس وفد من بنى عبدالقيس على الرسول ﷺ وأعلنوا دخولهم في الاسلام[٩].

وحُسن اسلام أهل البحرين وأرسل لهم رسول الله من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وشارك بعض رجالهم في غزوات الرسول وسراياه وضربوا المثل في الشجاعة والاقدام. وجعل رسول الله العلاء بن الحضرمي أميراً له على البحرين، وقد صالح العلاء سكان البحرين من المجوس واليهود والنصاري، الذين ظلوا عل دينهم ولم يعتنقوا الاسلام، وكتب لهم كتاباً بعد أن تعهدوا بدفع الجزية. وقد قال سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر كما اخذها من النصارى واليهود.

وقد بعث العلاء بن الحضرمي الى رسول الله مالا من البحرين قدره حوالى ثمانين ألف دينار، ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده، وقد أعطى منه عمه العباس(١٠).

ولما حدثت حركة الردة في عهد خلافة الصديق أبى بكر، ارتد فريق من أهل البحرين عن الاسلام، لكنهم لم ينضموا الى واحد ممن ادعوا النبوة، وذلك بعد وفاة مليكهم المنذر بن ساوى. فقام الجارود بن المعلى العبدى ونصحهم حتى ثابوا الى الاسلام، وقد ورد ان الجارود، حين ارتد أهل البحرين عن الاسلام، قام في قومه فقال لهم: «ألستم تعلمون ما كنت عليه من النصرانية وانى لم أتكم قط الا بخير، وان الله تعالى بعث نبيه ونعى له نفسه فقال: (إنك ميت وانهم ميتون)، وقال: ﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾. وفي رواية أخرى انه قال لهم: (ما شهادتكم على موسى؟) قالوا: (نشهد انه رسول الله)، فقال: (ما شهادتكم على عيسى؟) قالوا: (نشهد انه رسول الله) قال: (وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله عاش كما عاشوا ومات كما ماتوا وأتحمل شهادة من أبي أن يشهد على ذلك منكم)، فلم يرتد من عبدالقيس أحد. ويذكر الطبرى(١١)، أن رجلاً يدعى الحطم بن ضبيعة استمر في ردته وتبعه جماعة من بنى بكر بن وائل، أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم حتى بعث اليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي فحارب الحطم ومن معه ولم يستطع أن يقهره حتى بدت له فرصة فانتهزها. وكان المرتدون قد حاصروا المسلمين في حصن يقال له (جواثا) بالبحرين، وأصاب المسلمين جهد شديد من الجوع حتى كادوا أن يهلكوا فخرج عبدالله بن حذافة ليلة من الليالي ليتجسس أخبار العدو فوجدهم سكارى فأخبر المسلمين بذلك فبيَّتهم العلاء ومن معه من

المسلمين فقتل من قتل وأصبح ما أفاء الله على المسلمين من خيولهم عند العلاء في جواثا. ثم سار العلاء الى المدينة (هجر) فقاتلهم قتالا شديدا وهزمهم حتى لحقوا باب المدينة فتحصنوا بها فضيق العلاء عليهم حتى طلبوا الصلح فصالحوهم على ثلث ما بالمدينة من مال في أيديهم وما كان من شيء خارج عنها فهو له. فبعث العلاء بمال كثير الى المدينة. فلما ظهر العلاء على أهل الردة من أهل البحرين بعث أربعة عشر رجلا من رؤساء عبدالقيس وفدا الى أبي بكر يعلنون ولاءهم وطاعتهم وانتقاضهم لردتهم وتعهدهم بالامتثال هم وبلادهم لطاعة الدولة فقبل منهم الخليفة ذلك[١٢].

وبعد أن أخمد أبو بكر حركة الردة قسَّم الدولة الى عدة ولايات كانت البحرين احداها، وهي ولايات: مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضر موت وخولان وزبيد والجند ونجران وجرش والبحرين[١٣]، وكان رسول الله ﷺ قد عزل، قبل وفاته، العلاء عن البحرين، وجعل ولايتها لأبان بن سعيد بن العاص بن أمية، ولما توفى رسول الله أخرج أبان من البحرين فأتى المدينة، فسأل أهل البحرين أبا بكر، وقد صار خليفة، أن يرد العلاء عليهم، فرده فلم يزل والياً عليهم حتى وفاته سنة ٢٠هـ.

ولما اتسعت الدولة في عهد خلافة عمر بن الخطاب، قام عمر بتقسيمها الى أقسام ادارية كبرى ليسهل عليه حكمها والاشراف على موارد ثروتها والسيطرة على ارجائها، وذلك بضم الولايات الصغرى بعضها الى بعض في ولايات كبرى، فجعل ضمن هذه الولايات الكبرى ولاية ضمت الاهواز والبحرين في ولاية واحدة عرفت بهذا الاسم، وعينَّ عمر ولاة على هذه الولايات الكبرى وجعل سلطتهم مستمدة من سلطته، وقد عرفوا بالعمال، وجعل الى جوارهم عمالا للخراج. ويقول البلاذرى: أن عمراً بن الخطاب ولي على البحرين والأهواز الصحابى الجليل أبا هريرة الدوسى، ولاة الصلاة والأحداث، وولى قدامة بن مظعون الجمحى جباية البحرين، ثم عزل قدامة وولى أبا هريرة الجباية مع الأحداث[١٤]، ثم عزله وولى سنة ١٥هـ عامله عثمان بن أبى العاص الثقفي، فوجه عثمان أخاه الحكم بن أبى العاص، نيابة عنه، الى البحرين، ومضى هو الى عُمان[١٥]. وظل الحكم واليا على البحرين في عهد عمر حتى وفاته، وقد استبدل الخليفة عثمان بن عفان مكانه عبدالله بن قيس الفزارى

وجعله واليا عليها.

وفي عهد الدولة الأموية قسمت الدولة الاسلامية الى خمس ولايات كبرى، كانت احداها ولاية البحرين مضافا اليها عمان وكرمان وسجستان، وكان يشرف على هذه الولاية عامل البصرة من قبل والى العراق. وفي خلافة معاوية بن أبى سفيان صار زياد بن أبى سفيان من رجال معاوية واحد سواعده، فولاه البصرة وخراسان وسجستان، وأضاف اليه البحرين وعمان والهند(١٦). وفي العهد العباسي الأول ظل هذا التقسيم الاداري على ما هو عليه دون تغيير الا في منطقة الثغور.

ولقد اهتم حكام الدولة الاسلامية في صدر الاسلام ببلاد البحرين لكونها أكبر محطات الخليج البحرية وأهميتها في الفتوح البحرية. وقد كان العرب، في أول أمرهم، لا يعنون بالبحر والحروب البحرية لبداوتهم وعدم تعودهم ركوب البحر وممارسة أحواله، ولكنهم عرفوا أهمية البحر وتغيرت سياستهم تجاهه حين توجهوا للفتح منذ عهد خلافة عمر.

وكان العلاء بن الحضرمي، والى البحرين في عهد عمر، أول من ركب البحر وغزا فيه، فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثنى عشر ألفاً من المسلمين من أهل البحرين بحراً، ونجحت حملته وعاد الى البصرة محملا بالغنائم(١٧)، وبعد هذه الحملة صارت بلاد البحرين قاعدة الانطلاق للفتح البحرى لبلاد فارس وبلاد الهند والصين. وبسبب حاجة الدولة الى صناعة السفن لاعداد الاسطول الاسلامي الحربي والتجاري، اتخذت الدولة الاسلامية، منذ العهد الأموى، قرية عدولى بالبحرين لتصنيع سفن كبيرة عرفت في الجزيرة العربية باسم «العدولية» نسبة الى هذه القرية(١٨).

ولقد كان اتخاذ العباسيين العراق مركزاً لخلافتهم وبغداد عاصمة لدولتهم الواسعة، الأثر الكبير في ازدهار تجارة الخليج في عصر حكمهم الأول، وازدياد أهمية بلاد البحرين كقاعدة بحرية وتجارية لهذه الدولة ولتجارتها الواسعة وللعائد المادى الكبير الذي عاد عليها من وراء هذه التجارة. وقد أشادت المصادر العربية التاريخية والجغرافية جميعها وكتب الرحالة المسلمين بهذا الازدهار الملاحي والرواج التجارى في الخليج خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. كما تحدثت عن أنواع السلع الفاخرة المختلفة التى كانت تفرغ حولتها في البحرين وسائر موانىء الخليج والتى كانت مصدر ثراء التجار ويسر حالهم واكتمال

ترفهم وسبب انتعاش اقتصاد العالم الاسلامي جميعه في ذلك الوقت. وقد كانت بعض المدن الاسلامية تعرض، مع هذه التجارة العالمية ما تنتجه من سلع وما تشتهر به من صناعات وحاصلات وموادخام. كذلك كانت هذه البضائع تعرض في الأسواق الموسمية التى اشتهرت بها البلاد العربية. من هذه الأسواق: سوق دومة الجندل، على حدود الشام، والذي كان ينعقد أوائل شهر ربيع الأول من كل عام ويستمر انعقاده حتى نهاية الشهر. وقد كان رواد سوق دومة الجندل ينتقلون منه، بعد انفضاضه، الى سوق هجر بالبحرين، الذي كان ينعقد بمدينة هجر طوال ربيع الآخر كل عام، ومنه ينتقلون الى سوق بالبحرين يعرف بسوق المشقر(١٩)، ويبدأ انعقاد هذا السوق الموسمى بالبحرين في أواخر شهر ربيع الآخر وحتى أوائل شهر جمادى الأولى. وقد اشتهر هذا السوق بعرض سلع الشرق الغنية خاصة تلك المجلوبة من بلاد فارس. وقد كان اهل البحرين يعرضون في هذه الأسواق ما اشتهرت به بلادهم من أجود أنواع اللؤلؤ، وما اشتهرت به مدينة هجر من أجود أنواع التمور(٢٠). ولقد عادت التجارة بالثروة والجاه على أهل البحرين، فظهر ذلك عليهم، وانعكست آثاره الطيبة على المجتمع البحريني اجتماعيا وثقافيا. ولقد كان تجار البحرين من العلماء، ولقد اشتهر من بينهم عدد من هؤلاء العلماء الذين تفقهوا في الدين واللغة والأدب والتشريع منذ القرن الهجرى الأول. وقد ذكر ياقوت الحموى(٢١) انه يُنسب الى البحرين قوم من أهل العلم منهم: محمد بن معمر البحراني، حدث عنه البخاري، والعباس بن يزيد بن حبيب، ويعرف بعباسويه، حدث عن خالد بن الحارث وابن عيينه، ويزيد بن زريع، روى عنه الباغندى وابن صاعد وابن مخلد، وهو من الثقاة توفى سنة ٤٥٨ هـ، وزكريا بن عطية ، وغيرهم.

ولقد أشارت المصادر أيضا الى الدور الهام الذي وقع على عاتق أهل البحرين لحماية تجارة الدولة العباسية عبر الخليج، وهو دور مقاومة القرصنة البحرية التى انتشرت في البحار آنذاك. وقد قامت بالقرصنة جماعات أشارت اليهم المصادر الاسلامية باسم «متجرمة البحر». الذين قاموا بتهديد حرية المسافرين والتجار والاستيلاء على بضائعهم وأموالهم واغراق سفنهم والاعتداء عليهم بالضرب والتعذيب والقتل واسترقاقهم وبيعهم في أسواق

النخاسة واشاعة الرعب والفوضى في كل مياه الخليج. وقد عرفت أهم جماعات القراصنة في الخليج في العصر العباسي الأول بجماعات الميذ أو الميد، الذين ازداد تجرمهم واتسع عدوانهم في الفترة ما بين سنوات ١٤٠ و ١٥٣هـ، أيام خلافة الخليفة العباسي الثاني أبى جعفر المنصور. وقد شملت ضربات الميذ وهجماتهم موانىء الخليج كله وجاوزته الى ميناء البصرة، وعطلت الملاحة في الخليج وحدت من حركة الاتجار في موانيه. وقد أصبح على أهل موانى الخليج وأهل البحرين، على وجه الخصوص، دور أساسي في مقاومة هذا الخطر المدمر، وبخاصة بعد أن اثبت الاسطول العباسي عجزه عن التصدى له وظهر ضعفه وقلة استعداده وعدم مقدرته على التصدى لهؤلاء المتجرمة.

ولقد تحدثت المصادر الاسلامية عن هذا الخطر وعن ازدياد حجمه في مياه الخليج، وعن المساهمات التى قدمها أهل الخليج لدفع هذا الخطر حماية لمصالحهم الخاصة ومصالح الدولة العامة في وقت واحد.

وقد وردت الاخبار عن ذلك على لسان البلاذرى (ت ٢٧٩هـ)، وابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ) والمسعودي (ت ٣٤٦ هـ). لكن أكثر ما ورد عنه نجده واردا على لسان المؤرخ البصرى المعاصر للعصر العباسي الأول، وهو خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ).

يقول البلاذري: (الميذ الذين يقطعون البحر، ويبدو انهم اشتهروا بذلك واتخذوه عملا دائما خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حتى أضحت مغزى أهل البصرة وموضع عدائها وهجومها الدائم [٢٢] ويقول ابن خرداذبة ان الميد هؤلاء لصوص، يسرقون ما على سفن الخليج من تجارة ومتاع [٢٣]. ويقول المسعودي عنهم انهم (جنس من السند، وهم خلق عظيم ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها [٢٤]، أما خليفة بن خياط فانه يورد تفاصيل هجماتهم المتكررة على موانىء الخليج والبصرة سنوات ١٤١هـ، و ١٤٨هـ، و١٥١هـ، و١٥٣هـ [٢٥] وقد بلغ اكثر توغل للميذ في أرض الخلافة العباسية سنة ١٥٣هـ حين توغلوا في نهر دجلة وكادوا يصلون الى العاصمة بغداد.

ويبدو من انقطاع أخبار هؤلاء المتجرمة بعد سنة ١٥٣هـ مدى اهتمام الخلفاء العباسيين بالقضاء على هذا الخطر، وبذلهم الجهد الضخم لتنقية الخليج من سفن هؤلاء القراصنة، بداية من أبى جعفر

المنصور حتى الخليفة الواثق بالله[٢٦] واجبارهم على ترك الخليج ومطاردتهم في عقر ديارهم[٢٧].

وما كادت مياه الخليج تتطهر من متجرمة البحر، وما كادت التجارة العالمية تتنفس الصعداء وتعود الى الخليج وتعاود نشاطها الأول وتعود ثغوره ومراكزه الى ازدهارها، حتى تصاب هذه التجارة بخطر أشد وأنكى استهدف القضاء نهائيا على هذه التجارة في الخليج وفي كل موانىء الدولة العباسية.

وقد تمثل هذا الخطر في قيام ثورة الزنج في جنوب العراق، وقيام دولة القرامطة في البحرين. ولقد اتحدت أهداف هاتين الحركتين وجرى التنظيم بينهما في وقت واحد، وخططتا لاحتلال مراكز تجارة العباسيين العالمية واقامة حكم فيهما خارج عن حكمهم لحرمان الدولة العباسية من مصدر ثروتها الرئيسى، وهو التجارة الخارجية، ومساعدة العدو الرئيسي للعباسيين وهم الشيعة الاسماعيلية العلويين في القضاء على الخلافة العباسية وجعل الخلافة الاسلامية لهم دون بنى العباس.

وثورة الزنج، هي حركة تمرد عمت جنوب العراق والخليج قام بها رجل من رجال الشيعة يدعى على بن محمد بن أحمد، من بلدة الطالعان. ادعى أنه من آل بيت الرسول وان نسبه يرجع الى الامام الحسين بن علی. وقد سميت هذه الحركة بهذا الاسم لأن مدبرها جمع اليه الزنوج السودان الذين كانوا قد جلبوا الى العراق من شرق افريقيا ضمن تجارة الرقيق، وكانوا يعيشون عيشة بائسة في منطقة البصرة اذ كان عملهم الرئيسي هو كسح السباخ والملح عن الأرض الزراعية سخرة، وقادهم الى الثورة ضد دولة الخلافة لتحسين أوضاعهم الاجتماعية ورفع المعاناة عنهم[٢٨].

وبدأت أحداث هذه الثورة سنة ٢٥٥هـ، في عهد الخليفة المهتدى العباسي وانتهت سنة ٢٧٠هـ، في عهد الخليفة المعتمد على الله العباسى، أى انها استمرت قرابة الخمس عشرة سنة، عانت فيها البلاد الكثير من الحروب والخراب والدمار، وتوقفت التجارة وهجرت الموانىء وأقفرت الاسواق، وعاث الزنوج فساداً في غالبية بلاد العراق والبحرين وهجر بعد أن امتد خطر الثورة الى المنطقة ما بين البحرين والبصرة وواسط، واستولى الزنج خلال هذه الثورة على معظم مدن جنوب العراق وموانىء الخليج. وبنى صاحب الزنج له عاصمة سماها «المختارة». وقد ظلت

الحرب سجالاً بين الزنج وقوات الخليفة المعتمد التى كان يقودها أخوه الموفق طلحة، الى أن انتهت سنة ٢٧٠ هـ بهزيمة الزنج وابادتهم وقتل رئيسهم وهدم عاصمتهم [٢٩] وبمقتل صاحب الزنج انتهت هذه الثورة التى عطلت الحياة في العراق ومدن الخليج وسببت الخراب والدمار في البلاد وقلبت موازين الحياة الاجتماعية والاقتصادية رأسا على عقب في الدولة العباسية [٣٠].

وما كات الخلافة العباسية تلتقط أنفاسها وتستعيد توازنها الاجتماعي والاقتصادي بعد القضاء على ثورة الزنج، وتشرع سفنها التجارية في الابحار في مياه الخليج والمحيط الهندي، الا وتعرضت الدولة عامة وبلاد البحرين خاصة لخطر أشد وأقوى من خطر الزنج، وهو خطر القرامطة الشيعة الاسماعيلية. ولقد عُنيت واختصت البحرين بالذات لهذا الخطر لكونها المركز الذي اختاره هؤلاء الثوار القرامطة لاتخاذه قاعدة لهم يقيمون فيه دولة لهم ينطلقون منها لمحاربة العباسيين اقتصاديا، ويحققون من وراء ذلك أهدافا سياسية تخدم سادتهم العلويين أعداء العباسيين في صراعهم معهم [٣١].

ومن المفيد هنا ابراز مدى الترابط بين الحركتين: حركة الزنج وحركة القرامطة، وابراز أن المحرك فيهما واحد والهدف لكل منهما واحد، وهو العمل لصالح الشيعة الاسماعيلية العلويين. ورغم أن أحداث ثورة الزنج انتهت سنة ٢٧٠هـ بالقضاء على صاحبها وتدمير عاصمته في ذلك العام وأن أحداث حركة القرامطة بدأت سنة ٢٨٨هـ الا أن الاتصال بين الحركتين كان قائما، وان القراطمة قبل ان يبدأوا في التحرك والعمل كانوا على اتصال بصاحب الزنج. وان صاحب حركة القرامطة حاول أن يتفق مع صاحب ثورة الزنج على توحيد ثورتيهما في ثورة واحدة وتنسيق العمل بينهما، قبل ان يجاهر بثورته، الا أن صاحب الزنج لم يرض بشروط صاحبه وطمع في أن يكون الوارث الوحيد للدولة العباسية بعد أمله في القضاء عليها [٣٢]. وذكر ابن الأثير[٣٣] ان قرمط صار الى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج، فسار قرمط اليه، وقال له: (انى على مذهب ورأى ومعى مائة ألف ضارب سيف فناظرنى، فان اتفقنا على المذهب ملت اليك بمن معى وان تكون الأخرى انصرفت عنك)، فتناظرا، فاختلفت آراؤهما، فانصرف قرمط عنه.

ولنا ان نتصور حال الدولة العباسية لو نجح قواد الحركتين في

الاتحاد ضدها، بالقطع كانت النتائج ستكون أسوأ بالنسبة لدولة الخلافة ويكون الخطر أشد. وكان من الممكن في حالة الاتفاق، لصاحب حركة القرامطة أن يسارع باعلان ثورته عام ٢٨٨هـ واقتطاع بلاد البحرين عن جسم دولة الخلافة واقامة دولته فيها، لكن عدم الاتفاق أخر اعلان ثورة القرامطة الى الوقت الذي عادت فيه دولة الخلافة الى الضعف بعد فترة الانتعاش التى كانت قد عاشتها في عهد الخليفتين المعتمد والمعتضد. وكانت دولة الخلافة قد اشتد ساعدها وتقوت واستطاعت أن تتحلل من نفوذ القواد الاتراك عليها في عهد هذين الخليفتين القويين. لكن بموت الخليفة المعتضد وتولى الخليفة المكتفى بالله الضعيف أمر الخلافة (٢٨٩-٢٩٥هـ) ثم الخليفة المقتدر الأضعف من بعده (٢٩٥-٣٢٠هـ) عادت دولة الخلافة الى ضعفها وعاد استبداد قواد الاتراك بالحكم في الدولة، مما اعطي الفرصة للقرامطة لاعلان ثورتهم من البحرين واقامة دولة لهم هناك استمرت في قوتها ومناوأتها لدولة الخلافة حتى نهاية القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، أى قرابة قرنين من الزمان. ومن الغريب أن نفس هذا القدر من السنين الذي عاشته دولة الشيعة العلوية الاسماعيلية في البحرين عاشت دولة الشيعة العلوية الاسماعيلية التى قامت في المغرب وقدر لها ان تحكم مصر والشام باسم الدولة الفاطمية.

والقرامطة شيعة على المذهب الاسماعيلي الشيعي، المنشق عن المذهب الشيعي الامامي الاثنا عشرى. وقد عرف أصحاب هذه الحركة بذلك الاسم بسبب انتسابهم الى كبير دعاتهم في جنوب العراق: حمدان بن الأشعث، الذي كان يلقب بقرمط. ولقد اتخذت هذه الحركة سبيل الدعوة الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة للوصول الى الحكم ومحاربة الخلافة العباسية.

ولقد بدأت ثورة القرامطة ضد الدولة العباسية من بلدة واسط بالعراق وضمت اليها عامة الناس هناك وفلول منهزمى ثورة الزنج، وكان خروجهم في عهد الخليفة المعتضد بالله في السنوات الاخيرة من حكمه، ونجح القرامطة في الاستيلاء على بلاد البحرين واقتطاعها عن جسد دولة الخلافة واتخاذها لمكانها الاستراتيجي الحيوى، قاعدة لحكمهم، وكان ابو سعيد ابن بهرام الجنابي اكبر قواد القرامطة يعمل في السر في البحرين على نشر مذهب الشيعة الاسماعيلية هناك منذ عام

٢٨٦هـ.

وقد وجدت تعاليمه صدى لها عند العامة والفقراء من الاعراب[٣٤].

وبفضل القوة التى كونها ابو سعيد من أتباع دعوته نجح في الاستيلاء على هجر، عاصمة البحرين بعد محاصرتها لمدة عامين[٣٥]، كما نجح في سنة ٢٨٧هـ في الاستيلاء على مدينة الحسا (الاحساء) واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة[٣٦].

ولم تقف الدولة العباسية، في أول الامر، عاجزة أمام خطر القرامطة، بل تحرك الخليفة المعتضد في آخر سنى حياته، سنة ٢٨٩هـ، وأرسل جيشا الى البحرين لمحاربة أبى سعيد الجنابى واستخلاص البحرين من قبضته، بقيادة قائده العباس بن عمرو الغنوى، بعد أن ولاه اليمامة والبحرين، وضم اليه زهاء ألفى رجل واجتمع اليه كثير من المتطوعة والجند والخدم. الا أن هذ الجيش لقى هزيمة ثقيلة، ووقع قائده في أسر القرامطة، الا أن الجنابي قام باطلاق سراحه بعد أن حمله رسالة أراد تبليغها الى الخليفة[٣٧]. وواصل المعتضد سياسته لاستعادة البحرين من يد القرامطة، وظل مصراً على ذلك حتى وفاته. وقد بلغ من رغبته في القضاء على أبي سعيد انه كان يذكره خلال مرض موته ويقول: (حسرة في نفسي، كنت أحب أن ادركها قبل موتى. والله لقد كنت وضعت عند نفسي أن اركب ثم اخرج نحو البحرين ثم لا ألقى أحدا اطول من سيفى الا ضربت عنقه)[٣٨].

وقد تثبتت اقدام أبي سعيد في حكم البحرين بعد هذا النصر، ونجح في اقامة حكومة ملكية وراثية في بيته تعمل على نشر المذهب الشيعى الاسماعيلي في البحرين وما حولها، مثلما فعل الاسماعيلية الفاطميون حين اقاموا حكومتهم في مصر والشام عند منتصف القرن الرابع الهجرى. وقد عملت كلتا الحكومتين على مناوأة الخلافة العباسية ورغبت في القضاء عليها وانتزاع السيادة الدينية على العالم الاسلامي منها. وقد جمع القرامطة والفاطميين وحدة المذهب الشيعي والانتماء الى طائفة الاسماعيلية العلوية، ولذلك توطدت العلائق الطيبة بين قرامطة البحرين والفاطميين في بلاد المغرب، قبل ان ينتقلوا الى مصر، وعمل كل من جانبه على اضعاف الدولة العباسية وتسديد الضربات لها وزيادة التقارب بينهما. ولقد كان الفاطميون في المغرب يعتبرون قرامطة البحرين أتباعا لهم وعمالا لهم يعملون على نشر مذهبهم ويستمدون شرعية الحكم منهم. ولذلك ارسل عبيد الله المهدى الى أبى

طاهر سليمان، الذي تولى رياسة دولة القرامطة بعد وفاة والده أبى سعيد الجنابي [٣٩] (٣٠٢-٣٣٢هـ)، كتابا بتوليته حكم ما تحت يده. وكان أبو سعيد، قبل قتله، قد استولى على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين[٤٠]

ومما لا شك فيه ان قيام دولة القرامطة في البحرين كان قد أثار في وجه الخلافة العباسية المشاكل والمتاعب الكثيرة، ففضلا عما كانت تعانيه هذه الدولة آنذاك من اضطرابات داخلية بسبب ازدياد نفوذ الاتراك والصراع بينهم على الحكم واستبداد حكام بني بويه بالسلطة في بغداد. حاولت الدولة العباسية يائسة اقتلاع حكم القرامطة من البحرين ووقف هجماتهم على اراضيها دون جدوى، الامر الذي أدى الى ازدياد اسهم الفاطميين في بلاد المغرب مما أغراهم بفتح مصر وسهل لهم هذا الأمر وأظهر ضعف دفاعات الدولة العباسية في القلب والأطراف. وقد اتفقت غارات قرامطة البحرين على اراضي الدولة العباسية بالمشرق مع نفس توقيت الحملات التي وجهها عبيد الله المهدى الى مصر، والتي انتهت باستيلاء جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي على مصر واقامة الدولة الفاطمية على أرضها، وضم الشام اليهم مع المغرب، وقد كانت كل هذه البلاد تدين بالتبعية والخضوع للدولة العباسية[٤١].

ولقد سعى أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في سياسته الى توسيع سلطانه خارج بلاد البحرين وبسط سيادته على كل جزيرة العرب واقتطاعها من الدولة العباسية، وزيادة على ذلك، امتدت أطماعه الى اسقاط دولة الخلافة نفسها والاستيلاء على بغداد عاصمة خلافة العباسيين[٤٢]. وقد رمى أبو طاهر، بسياسته هذه الى هدفين، أولهما: اشغال الدولة العباسية بهذا الخطر الجديد القادم من البحرين، وتوجيه كل همها لمواجهته وصرف نظرها عن محاولة الشيعة الاسماعيلية الجادة في اقامة دولة شيعية لهم بالمغرب. والثانية: هي اضعاف الدولة العباسية وانهاكها اقتصاديا، وبالتالي عسكريا، مما يتيح له الفرصة لغزوها في عقر دارها واسقاط عاصمتها بغداد في يد قادته.

وقد قضى أبو طاهر السنوات الاولى من حكمه في البحرين في تنظيم شئون دولته ومحاولة التودد لأهل البلاد واقناعهم باعتناق مذهبه، واعلان تبعيته لعبيد الله المهدى[٤٣]،

ثم عمل على تقوية جيشه واعداده اعدادا طيبا وقيادته والتوجه به لفتح بلاد العراق واستهداف بغداد بالذات. فزحف أبو طاهر بجيشه سنة ٣١١هـ واستولى على البصرة والكوفة، فهرب أهلهما الى بغداد، وغنم أبو طاهر مغانم كثيرة عاد بها الى هجر[٤٤]. وقد أورد ابن الأثير أن أبا طاهر أقام سبعة عشر يوما يحمل من البصرة ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان[٤٥]. ولقد أشاد أبو طاهر بانتصاره هذا في قصيدة شعرية له أورد أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة، أبياتا منها[٤٦].

وفي سنة ٣١٦هـ تقدم أبو طاهر بقواته من البحرين الى بغداد، وكادت بغداد تسقط في يده لولا دهاء مؤنس الخادم، قائد الخليفة العباسي المقتدر بالله، الذي بعث بزواريق ملأى بفاكهة مسمومة فلما أكل منها جند القرامطة تسمموا ومات منهم عدد كبير من جراء ذلك، فأثر ذلك في جيش أبي طاهر المهاجم، مما اضطره الى الارتداد عن بغداد عائدا الى البحرين بمن تبقى من رجاله[٤٧]. لكن هذه الهزيمة لم تمنع أبا طاهر من معاودة الهجوم على أملاك الدولة العباسية، ففي سنة ٣١٧هـ هاجم الحجاز واستولى على مكة،، واقام الخطبة والدعاء فيها لعبيدالله المهدى بدلا من الخليفة العباسي المقتدر. وعاد الى الاحساء بعد ان اصطحب معه الحجر الأسود بعد ان اقتلعه من مكانه على الكعبة واقامه عنده وجعله مزارا للناس هناك. وقد دام الحجر الاسود هناك مدة اثنين وعشرين سنة[٤٨]، الى أن رد الى مكانه بالكعبة، بعد موت أبى طاهر في خلافة المطيع لله العباسي سنة ٣٣٩هـ[٤٩].

ولقد ازداد خطر القرامطة على الدولة العباسية بعد ضمهم الحجاز الى تبعيتهم، وتحكمهم في الحج وفرضهم أتاوة على الحجاج يؤدونها لهم مقابل حمايتهم والحفاظ على أرواحهم. وبذلك جرد القرامطة دولة الخلافة العباسية من أهم واجباتها المقدسة واظهروها عاجزة عن حماية رعاياها من الحجيج وتأمين طريقهم الى الديار المقدسة، الأمر الذي اذهب هيبتها أمام العالم الاسلامي، وهو هدف سعى اليه القرامطة ليمهدوا السبيل أمام خلافة الفاطميين ليقوموا بهذا الدور عن العباسيين.

ولقد ظلت العلاقات طيبة بين قرامطة البحرين و الفاطميين ببلاد المغرب طوال النصف الاول من القرن الرابع الهجرى، وحرص حكام القرامطة على استمرار هذه العلاقات

الطيبة بينهما، بل على اظهار الولاء والتبعية للفاطميين والسماح لهم بالتدخل في تعيين أمرائهم وحكامهم. ذلك انه لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢هـ اعترض بعض رجال دولته على تولية أخيه الأكبر أحمد بن أبي سعيد الحكم بعده، وكان أبو طاهر قد أوصى بأن يخلفه في الحكم، ومالوا الى تولية سابور بن أبى طاهر الحكم مكان أبيه، وكاتبوا الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله في المغرب في ذلك. فجاءهم كتاب القائم بولاية أحمد، على أن يكون سابور ولي عهده. فنفذت رغبته، وتقلد أحمد حكم دولة القرامطة، وتلقب بلقب أبى منصور، وكان من الطبيعي أن يعترف أبو منصور للخليفة الفاطمي بالجميل وان يحذو حذو أخيه في التبعية والولاء للفاطميين. وقد استجاب أبو منصور لطلب الخليفة الفاطمي المنصور بن القائم بأن يعيد الى مكة الحجر الاسود، فأعاده سنة ٣٣٩هـ اليها[٥٠].

وفي سنة ٣٥٣هـ أغار القرامطة على بلاد الشام، وكانت خاضعة لحكم الاخشيديين[٥١]. وتمكنوا بمعاونة الحمدانيين، من احراز النصر على الحسن بن عبيدالله بن طغج الاخشيد، الذي كان يلى هذه البلاد من قبل الاخشيديين حكام مصر. وقد نجحت هذه الحملة في الوصول الى طبرية والاستيلاء عليها، لذا عرفت بحملة طبرية. وفي سنة ٣٥٧هـ عاود القرامطة هجومهم على الشام، وعجز الاخشيديون عن صدهم، فسقطت مدينة الرملة بفلسطين في أيديهم، واضطر الحسن الاخشيدي الى التصالح معهم على ان يدفع لهم ثلاثمائة الف دينار كل عام، وبذلك امتد نفوذ دولة قرامطة البحرين الى بلاد الشام في أواخر عهد الاخشيديين[٥٢]. ولقد شجعت انتصارات القرامطة على الاخشيديين في الشام الفاطميين في مصر على فتح هذه البلاد وضمها الى دولتهم. فلما أتم جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، فتح مصر وأيقن ان النفوذ الفاطمي قد توطد فيها أرسل حملة الى الشام جعل قيادتها لجعفر بن فلاح الكتامى أواخر سنة ٣٥٩هـ نجحت هذه الحملة في هزيمة الاخشيديين عند الرملة وطبرية واستولت على دمشق، وخطب من على منابرها للخليفة الفاطمي المعز لدين الله وحذف من الخطبة اسم الخليفة العباسي المطيع، وكان ذلك في أول المحرم سنة ٣٦٠هـ.

هذا ولقد تعرضت دولة القرامطة بالبحرين للعنف في النصف الثاني من

القرن الرابع الهجرى، وذلك بسبب النزاع الذي نشب بين أبناء الاسرة الحاكمة على الحكم. فلقد ثار الأمير سابور بن أبى طاهر على حكم عمه أحمد بن أبى سعيد الجنابي (أبى منصور) سنة ٣٥٨هـ. ونجح سابور في القبض على عمه واعتقاله واعتلاء الحكم مكانه. غير أن أتباع أبى منصور نجحوا في تخليصه من السجن واخراجه من معتقله وقيامهم بمحاربة سابور. وانتهى الصراع بين العم وابن أخيه بمقتل ابن الأخ بعد هزيمة قواته، ونفى اخوته وأشياعه الى جزيرة نائية بالبحرين تعرف بجزيرة أوال. وبذلك انقسم البيت القرمطي الحاكم في البحرين الى معسكرين، كل يؤيد حزبه: بيت أبى طاهر، وبيت أبى منصور. ولقد استعاد أبو منصور الحكم في البحرين. وظل يحكم حتى وفاته سنة ٣٥٩هـ فخلفه في الحكم ابنه الحسن بن أحمد، الملقب بالأعصم(٥٣).

ولقد بدأت العلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميين تتغير في عهد حكم الاعصم، الذي عرف بعدائه للفاطميين وولائه للعباسيين. ولقد تمثل هذا التغيير في سياسة الولاء للفاطميين بقيام الحسن الاعصم بابعاد ونفى اخوة سابور بن أبى طاهر وأشياعهم من الموالين للفاطميين، وعددهم حوالى ثلثمائة رجل الى جزيرة أوال. كذلك عدم اعتراضه، أثناء تواجده بمكة، على الدعاء في الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله من فوق منبر الحرم الشريف، وسرعان ما أعلن سياسته العدائية للفاطميين صراحة حين طالب الفاطميين، حين نجحوا في ضم الشام اليهم، بدفع الاتاوة التى كان يدفعها الاخشيديون لهم حين كانوا يحكمون الشام. ولقد رفض القائد الفاطمي على الشام جعفر بن فلاح الكتامى دفع هذه الاتاوة للقرامطة، مما أدى الى زيادة العداء بين قرامطة البحرين والفاطميين، وزيادة تقرب القرامطة لدولة الخلافة العباسية.

ولقد لعبت سياسة المصالح دورا هاما في وضع العلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميين، الامر الذي جعل القرامطة يغيرون سياستهم الاستراتيجية تغييرا كاملا تبعا لمصالحهم بغض النظر عن انتمائهم المذهبي للمذهب الشيعي الاسماعيلي مذهب الفاطميين. فتخلى قرامطة البحرين عن التبعية للفاطميين وعن المذهب الشيعي واعلنوا الولاء للخليفة العباسي وحذف اسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من الخطبة ببلاد البحرين والدعاء للخليفة العباسي المطيع لله، وقد قام قرامطة البحرين

بهذا العمل على أثر ما قام به الفاطميون من سحب اعترافهم بشرعية حكم الاعصم واعترافهم بأحقية ولد أبى طاهر، أشياعهم في حكم دولة القرامطة. وقد تمادى الاعصم في عدائه للفاطميين وازداد تقربا للعباسيين حين طلب المعونة من الخليفة العباسي المطيع ومن عز الدولة بختيار أمير بنى بويه على العراق سنة ٣٦٠هـ، يطلب منهما أن يمداه بالرجال والمال ليستعيد بلاد الشام من يد الفاطميين ويحكمها نيابة عنهم(٥٤) ولم تتوان دولة الخلافة وحكام بنى بويه في بغداد من ارسال ما طلبه من مدد اليه، فأرسلوا اليه مالا قدره مليون درهم وسلاحا كثيرا. ولما اكتمل اعداد جيش الحسن الاعصم توجه لفتح دمشق سنة ٣٦٠هـ(٥٥) . وقد حمل جنوده أعلام الدولة العباسية السوداء التى كتب عليها اسم الخليفة العباسي المطيع عبدالكريم، وتحت الاسم كتب (السادة الراجعون الى الحق)، مما يؤكد انصراف قرامطة البحرين عن الدعوة الشيعية الاسماعيلية التى كانت أساس دعوتهم ودولتهم في بلاد البحرين(٥٦). ولقد استطاعت قوات القرامطة الكبيرة العدد، بمن انضم اليها من الحمدانيين والعقيليين بالشام، من هزيمة قوات جعفر بن فلاح الفاطمية وقتله مع عدد كبير من اتباعه والاستيلاء على مدينة دمشق.

ونهج الحسن الاعصم في بلاد الشام سياسة التودد الى أهلها وقام بتأمينهم.، وأقام الخطبة في مساجدها للخليفة العباسي مما كان له عظيم الاثر على قلوبهم بسبب سنيتهم الشديدة وعدائهم للشيعة. وواصل الحسن فتوحه في بلاد الشام فاستولى على معظم مدنها، وأقاموا الدعوة للمطيع العباسي في كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم، وأظهروا انهم عمال على هذه البلاد من قبل الخليفة العباسي(٥٧).

ولما تم للحسن الاعصم فتح غالبية مدن الشام زحفت جيوشه الى مصر وهاجمتها مرتين ليقضى على دولة الفاطميين في عقر دارها، مرة سنة ٣٦١هـ، والمرة الثانية سنة ٣٦٣هـ لكن محاولته في كلتا المرتين باءت بالفشل بسبب تصدى المعز لدين الله الفاطمي لهذه القوات(٥٨) ونجاحه في استمالة بعض عناصر جيش القرامطة بالمال وانسحابهم من مواجهة جيش الفاطميين عند اللقاء(٥٩). كذلك استبسال الجنود المصريين في الدفاع عن بلادهم ضد هذا الغزو فتقهقر الحسن الاعصم بجنده عائدا الى

الاحساء. وكان المعز لدين الله الفاطمي قد أرسل كتابا الى الحسن، حين قدم المعز من المغرب الى مصر سنة ٣٦٢هـ قبل ان يشتبك معه في الحرب يدعوه الى العدول عن موقفه العدائى للفاطميين ويذكره بعلاقة أسلافه الطيبة من أمراء القرامطة بالبحرين معهم(٦٠).

ولقد قامت الخلافات ثانية من جديد في بيت القرامطة الحاكم في البحرين وتجدد الصراع والنزاع بين افراد الأسرة الحاكمة على الحكم عقب وفاة الحسن الاعصم سنة ٣٦٧هـ.

وقد عمل أتباع بيت أبى طاهر آنذاك على اقصاء ولد أبى سعيد عن الحكم، ثم استقر الرأى أخيرا بين أمراء البيت القرمطي الحاكم على أن يتولى الحكم في البحرين اثنان من رجالهم، وهما: جعفر واسحق، لكن النزاع سرعان ما وقع بين هذين الأميرين بسبب رغبة كل منهما في الانفراد بالحكم والسلطة في البلاد دون الآخر. ولقد انتهى الصراع بين الأميرين بالحرب التى عجلت بنهاية دولتهم وزوالها عند نهاية القرن الرابع الهجري.

ولقد كانت بطون القبائل العربية بالبحرين ترقب الموقف عن كثب وتنتظر نتيجة الصراع على الحكم وتستفيد من هذه النتيجة. ولقد استفاد بنو تغلب من ذلك الموقف ونجح زعيمهم الاصغر بن أبى الحسن التغلبى سنة ٣٩٨هـ في الاستيلاء على الحكم في البحرين واقصاء جعفر واسحق عنه، واعادة تبعية تلك البلاد الى الدولة العباسية والمذهب السنى والخطبة فيها للخليفة العباسي الطائع لله. هذا وقد كان بنو تغلب أكثر العرب المقيمين في البحرين عددا وأظهرهم مكانة، وكان يليهم في ذلك الأمر عرب بنى عقيل وعرب بنى سليم.

لكن الأمور، لم تستقر، بعد ذلك، في البحرين بسبب استمرار النزاع بين بطون القبائل العربية هناك ورغبة كل بطن منها في الوصول الى حكم البلاد والسيطرة على مقاليد الأمور فيها. وقد استعان بنو تغلب لتحقيق ذلك ببنى عقيل على بنى سليم، ونجحوا في طرد بنى سليم من البحرين، فساروا الى مصر ومنها الى المغرب. ثم وقع الخلاف والحرب بين بنى تغلب وبنى عقيل، وانتهى الأمر بخروج بنى عقيل الى اقليم الجزيرة بشمال العراق، واقامة دولة لهم هناك. وانفرد بنو تغلب بحكم البحرين، ونجح زعيمهم الاصغر في جعل الحكم وراثيا في بنيه من بعده ببلاد البحرين. فظلوا يلون الأمر ويحكمون في هذه البلاد حتى ضعف أمرهم بسبب صراع البيت

الحاكم على السلطة وانتهز بنو عقيل فرصة ضعف البيت التغلبي فأقصوهم عن الحكم وتولوه مكانهم. وكان بنو عقيل قد عادوا الى ديارهم بالبحرين بعد أن تغلب عليهم السلاجقة في الجزيرة وطردوهم منها. فصار الملك في البحرين لبنى عقيل، وصار بنو تغلب من جملة رعاياهم[٦١]. ولقد استمر وضع الحكم في البحرين على هذا النحو تحكمه بطون قبيلة عبدالقيس حتى القرن الثامن الهجرى. وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة ذلك عند مروره عليها أثناء رحلته الاولى سنة ٧٣٢هـ.

يقول ابن بطوطة ما نصه[٦٢]: «ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قرب المؤنة يحفر عليه بالايدى فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والاترج والليمون ويزرع بها القطن. ثم سافرنا الى مدينة هجر، وتسمى الآن بالحسا، وهي التى يضرب بها المثل فيقال «كجالب التمر الى هجر» وبها من النخل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب واكثرهم من قبيلة عبدالقيس بن أفصى».

أ.د. عطية القوصي
أستاذ التاريخ الاسلامي
بكلية الأداب – جامعة القاهرة

الهوامـــش

١) Kammerer: La Mer Rouge, L'Abyssinie, t.I, 3e Partie, Paris, 1925, p. 205.

٢) عرف ياقـوت الحموى البحرين بأنها: «اسـم جامع لبلاد على ساحـل بحر الهند بين البصرة وعمان، قيل هـي قصبة هجـر، وقيل هجر قصبـة البحريـن، وفيها عيون ومياه وبـلاد واسعة، وسميت البحريـن لأن من ناحية قـراها بحيرة على باب الأحساء وقـرى هجر بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسـخ وقدرة هذه البحيرة ثلاثة أميال (ياقوت: معجم البلدان، نشر وستنفليد، ليبزج ١٨٦٦، ص ٥٠٦-٥٠٨).

٣) ذكر الاخبـاريون أن أقوام طسـم وجديس مـن العرب البـائدة كانوا قـد سكنوا الاحقاف والبحـرين. ورووا أيضـا ان الرئاسـة على قبيلتى طسـم وجديـس في البحرين كانـت أولا لطسم. وظل الحال على ذلك حتى ولى أمرهـا رجل ظالم قام باذلال قبيلـة جديـس فدخـل الطرفان في حـرب انتهت بهزيمـة طسم وقتـل كل رجالها دون رجـل واحد هـو رباح بن مـرة وقد فـر رباح الى ملـك حمير اليمنى حسان بن تبع حيـث طلب منه المساعدة لمحاربة جديـس فوافقه الملك الحميرى وأمده بجيـش كبير سار على رأسه الى البحـرين فأبادهـم وصارت بذلـك طسم وجديس من العرب البائدة (الطبرى: تـاريخ الرسل والملوك، نشر دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨ حـ١ ص ٦٢٩).

٤) تفرعت القبائل العدنانية كلها من نسـل ولدى عدنان: معد وعك، وتفرع من معد قبائل أربع هي: اياد ونزار وقنص وانمار، وكـانت منازلهم القديمة في تهامة ثم ارتحلوا بسبب الحروب التى دارت بينهـم فذهب قسـم منهم الى العـراق حيث نزلوا الانبار وتكريت، وذهب قسم آخـر منهم الى البحرين وهجر حيث انضموا هنالـك الى قضاعـة وتفرعـت من نزار أشهـر البطون العـدنانيـة، ومنها: مضر وربيعة. وكـانت أسد وضبيعـة أشهر بطون ربيعـة. ومن أسـد كانت جـديلة وعنزة وعميرة، ومن جديلة عبدالقيس ووائل، ومنهما تفرع كل من بكر وتغلب. وقـد كان بنـو تغلـب بن وائل مـن أكثـر العرب المقيمين ببـلاد البحـرين عـددا وأظهرهم عزة عند ظهور الاسلام (القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا، طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩١٤، ط١ ص ٣٣٦-٣٣٨). وقد ذكر ياقوت انه كان بها خلق كثير مـن عبدالقيس وبكر بـن وائل وتميم مقيمين في باديتها (يـاقوت:

معجم البلدان، ص ٥٠٨).

٥) Wiet, G. L'Égypte Arabe, t. IV, p. 166

٦) أبـن هشام: سيرة ابـن هشام، حـ٤ طبعـة بيروت ١٩٧٥، ص١٨٨ - ذكر ابـن هشام أن مملكـة البحريـن كانت تمتـد في عهد رسـول الله ﷺ من البصرة شمالا حتى عُمان جنـوبا، وان البحـرين واليمامة كـانتا تعـرفان بمنطقـة العروض بسبب اعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

٧) ابن هشام: سيرة ابن هشام، حـ٤ ص ١٨٨.

٨) ياقوت : معجم البلدان، ص ٥٠٩.

٩) ابن هشام: سيرة ابن هشام، حـ٤ ص ١٨٨.

١٠) ياقوت : معجم البلدان، ص ٥٠٩.

١١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٣، ص ٢٤٧.

١٢) الطبرى: نفس المصدر، والجزء، ص ٢٤٨.

١٣) عطية القـوصى: تاريـخ الدولة العربيـة الاسلامية، القـاهرة ١٩٩٤، نشر دار الثقافة العربية، ص ٢١٤.

١٤) ياقوت: معجم البلدان، ص ٥٠٩

١٥) البلاذرى: فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٣٨.

١٦) ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية، طبعة القاهرة ١٩٢٧، ص١١١.

١٧) قام العـلاء بهذه الحملة دون اذن مـن الخليفة، الذي كـان يكره ركـوب البحر ويكره اجبار المسلمين على ركوبه، مما كان سبباً في عزله عن ولايته.

١٨) محمود عرفة: العرب قبل الاسلام، القاهرة ١٩٨٧، ص٣١٩، ٣٢٠.

١٩)ينتسب اسم هذا السوق لاسم حصن كان مملوكا لبنى عبدالقيس بالبحرين.

٢٠) ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت ١٩٧٠، ص ١٤٤.

٢١) معجم البلدان، ص ٥٠٨.

٢٢) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٥٤٤.

٢٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩، ص ٦٢.

٢٤) المسعودي : التنبيه والاشراف، بيروت ١٩٦٥، ص ٥٥

٢٥) ابـن خياط: تـاريـخ خليفة بـن خياط، تحقيـق أكـرم ضياء العمـرى، بيروت ١٩٧٧، ص ٤١٩، ٢٤٢-٤٢٦.

٢٦) عطيـة القوصـى: تجارة الخليج بين المد والجزر في القـرنين الثـاني والثالـث الهجريين، الكويت ١٩٨٠، ص ٢٦.

٢٧ع) طية القوصى: نفس المصدر، ص ٢٦.
١٢٨) لمقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ط ، القاهرة ١٩٤٢، ص ١٧.
١٢٩) بن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٢٥٠، ٢٥١.
١٣٠) بن الأثير: الكامل بيروت ٧٨، حـ٦، ص ٧١.
٣١) Sauvaget : Instructions Nautiques Arabs pour mers de L'Inde, Journal Asiatique, t 236, 1948, p.p. 16-18.
٣٢) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٠، حـ١ ، ورقة ٢٢٢ أ.
٣٣) أبن الأثير : الكامل، حـ٦ ، ص ٧١.
٣٤) تحدث ناصر خسرو (سفرنامة، ص ١٤٢، ١٤٣) عن تعاليم أبى سعيد الجنابي لأتباعه بأنه أعفى أتباعه من الصلاة والصوم ودعاهم الى أن مرجعهم لا يكون إلا اليه. ويبدو من قول ناصر خسرو أن ذلك الادعاء كان بعد وقوع القطيعة بين القرامطة والفاطميين. ولقد كان ناصر خسرو من أكبر المعجبين بحكام الفاطميين.
٣٥) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص٤١ ، ٤٢.
٣٦) يخلط الكُتاب بين الاحساء (الحسا) وهجر، ويظهر من كتاباتهم أنها كانت مدينة واحدة ويؤيد ذلك ما ذكره ابن بطوطة في كتاب رحلته حيث ذكر أن هجر في أيامه كانت تسمى بالحسا، انظر: ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٩٨٥، حـ١ ص ٣٠٥).
٣٧) ابن الاثير : الكامل، حـ٦، ص ٩٤ ، ٩٥.
٣٨) المقريزى : إتعاظ الحنفا، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ص٢١٩.
٣٩) مات أبو سعيد الجنابي مقتولاً سنة ٣٠٢ هـ على يد خادم صقلبى له في الحمام (ابن الاثير: الكامل، حـ٦ ، ص ١٤٥).
٤٠) ابن الاثير : الكامل، حـ٦ ، ص ١٤٧.
٤١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٤٧.
٤٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ص ٢١٩.
٤٣) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي، حـ٣ القاهرة ١٩٦٤، ص٣٣٩.
٤٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، حـ٣، طبعة دار الكتب، القاهرة ١٣٥٢هـ، ص٢٢٥.

٤٥) ابن الاثير : الكامل، حـ٦ ، ص ٣٣٥.
٤٦) وكان أول هذه القصيدة قوله: (ابن تغرى بردى: النجوم، حـ٣، ص٢٢٥).

أغـــركــم منـى رجـــوعـــي الى هجــر — فعما قليـــل ســـوف يـــأتيكـــم الخبر
إذا طلـــع المريـــخ مـــن أرض بـــابـــل — مقـــارنـــة كيْـــوان فـــالحذر الحذر
فمـــن مبلـــغٌ أهـل العـــراق رســـالـــةً — بـأنـى أنـا الموهـوب في البـدو والحضر

ومنها قوله :

فيـــا ويلهـم مـــن وقعـــة بعـد وقعـــة — يســاقون سوْق الشـاء للـذبح والبقـر
ســـأصرف خيلي نحـــو مصر وبـــرقـــة — الى قيروان الترك والـــــروم والخزر
إكيلهـــم بـــالسيـــف حتـــى أبيـــدهـــم — فـلا أبُـق منهـم نسـل أنثـى ولا ذكـر
أنـــا الـــداع للمهـــدى لا شـــك غيره — أنا الصـارم الضرغام والفـارس الذكـر

٤٧) ابن الاثير : الكامل، حـ٦ ، ص ٣٣٥.
٤٨) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤٤.
٤٩) ابن الاثير : الكامل، حـ٦ ، ص ٣٣٥.
٥٠) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٤٨.
٥١) المقريزي : الخطط ، حـ١ ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، ص ٣٢٩.
٥٢) سرور : نفس المصدر ، ص ١١٦.
٥٣) سرور : سياسية الفاطميين الخارجية، ص ٤٨ ، ١٢٣.
٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، حـ٤ ، ص ٩٠.
٥٥) المقريزي : الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥٣.
٥٦) سرور : سياسة الفاطميين ، ص ١٢٥.
٥٧) المقريزي : إتعاظ الحنفا ، ص ١٧٩.
٥٨) المقريزي : الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥٣.
٥٩) سرور : نفس المصدر ، ص ١٣٢.
٦٠) أورد المقريزي نص الكتاب الذى أرسله الخليفة المعز لدين الله الفاطمي للحسن الأعصم في كتابه إتعاظ الحنفا، ص ٢٥٨-٢٦٥.
٦١) محمد جمال الدين سرور : رحلة ابن بطوطة، ص ٥٢.
٦٢) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة حـ١ ، ص ٣٠٥

مصــادر البحــث

- إبن الأثير : الكامل في التاريخ، طبعة بيروت ١٩٧٨.
- ابن تغرى بردى، أبــو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملــوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٢هـ.
- ابن خرداذبة : المسالك والممالك، نشردى خويه، ليدن ١٨٨٩.
- ابن طباطبا، ابن الطقطقى : الفخرى في الآداب السلطانية، القاهرة ١٩٢٧.
- ابن هشام : السيرة النبوية، طبعة بيروت ١٩٧٥.
- البلاذرى : فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧.
- حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي، القاهرة ١٩٦٤.
- خليفة بن خيــاط: تاريخ خليفة بــن خياط، تحقيق أكرم ضيــاء العمرى، بيروت ١٩٧٧.
- سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، مخطوطة، بـالمكتبة الأهلية بباريس، حــ١ ، رقم ١٥٠٥.
- سليمان العسكرى: التجارة والملاحة في الخليج العربي، القاهرة ١٩٧٢.
- شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، الكويت ١٩٧٤.
- عطية القــوصى : تاريــخ الدولة العــربية الاسلاميــة، نشر دار الثقافة العــربية، القاهرة ١٩٩٤.
- ———— : تجارة مصر في البحر الأحمر منــذ فجر الاســلام حتى سقــوط الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٧٦.
- ———— : تجارة الخليــج بين المد والجزر في القــرنين الثــاني والثــالــث الهجريين، نشر الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت ١٩٨٠.
- ———— : سيراف وكيش وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس، مقال بمجلة الجمعية المصرية للــدراسات التاريخية، المجلد ٢٣ لسنة ١٩٧٦.
- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، نشر دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨.
- القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الإنشــا، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٤.
- محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧.

- ———— : النفوذ الفاطمي في الجزيرة العربية، القاهرة ١٩٦٤.
- محمود اسماعيل : الحركات السرية في الاسلام، القاهرة ١٩٧٣.
- محمود عرفة : العرب قبل الاسلام، القاهرة ١٩٨٧.
- المسعودى : التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥.
- المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨.
- المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ
- ———— : السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٤٣.
- ناصر خسرو : سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت ١٩٧٠.
- ياقوت الحموى : معجم البلدان، نشر وستنفيلد، ليبزج ١٨٦٦م.

- De Goeje : M'emoire sur Les Carmathes du Bahrain et Les Fatimides, Leyden 1886.
- Kammerer : La Mer Rouge L'Abyssinie, t.I, 3e Partie, Paris 1925.
- Sauvaget : Instructions Nautiques Arabes pour mers de L'Inde, J.A.t. 236, Paris 1984.
- Wiet, G: L'Égypte Arabe, t. IV, Paris 1937.